خطوات على الشلال

إلى معبد أبو سنبل

بقلم : محمود تيمور

الوصول من « أسوان » الى « أبي سنبل » وسائل ثلاث

الاوليان منها قائمتان فعلا ، ويمكن اتخاذ احداهما . والثالثة ما زالت في طور الاعداد ، او بالحري في عالم الغيب ، ولكنك على الرغم من ذلك قادر أن تضمها الى احتيها ، فكل ما كان في عداد الآمال البعيدة أصبح سهل التحقيق ، ميسور الانعاد ، ان لم تشهده اليوم فانت شاهده في غد قريب .

كل وسيلة من تلك الوسائل الثلاث لهـا مزايا وخصائص ، فالباخرة النيلية تحملك في الذهاب والاوبة ثلاثة أيام على متن الماء ، كأنك في فندق عائم ، تستمتع برحلة ترفيهية مريحة . وفي الزورق الطائر « الهيدروفيل » لا تقضي الا خمس ساعات في الذهاب ومثلها في الاياب . أما الوسيلة الثالثة المنتظرة فهي الطائرة ، واذا أنجز مشروعها فلن تتعطل في الرحلة من الوقت الا بعض ساعة .

واخترنا الزورق الطائر .

واجتمعنا نحن رفقة الزيارة في بهو الفندق ، قبيل السحر ، واقلتنا الحافلة الى المرفأ على مقربة من جزان « أسوان » ، والظلمة غاشية ، والسماء ترسل الينا من عليائها لمحات النجوم .

مثلنا أمام الزورق نتبينه على ضوء المصابيح ، لكأنه طائرة طافية بلا جناحين ، وهو حافلة بهرية تجري على زلاجات فوق الماء ، فاذا مرقت جسيتها تسبح طائرة ، او تطير سابحة .

ودخلنا جوفه ، واتخذنا مقاعدنا فيه ... ما أعجب أمره ، قاعاته على تعدد طبقاتها متصل بعضها ببعض ، في هندسة لولبية طريفة .

وتحرك الزورق الطائر ، على حين أومضت في حواشي الأفق بواكير الفجر الجديد ، فكسته صبغة أرجوانية هادئة .

ولم يمض طويل وقت ، حتى طالعتنا أنوار كهربية ساطعة من الشاطئ ،

تصحبها حركة دوارة ... هذه منطقة السد ، لا يحبو لها ضوء ، ولا تسكن لها ضحة ، في ليل او نهار .

وواصلنا السير سراعا ، كانا على موعد نخشى أن نخلفه ، وطلع الفجر يرف الينا ضوء الصباح ، فاستبانت لنا الدنيا من حولنا ، واذا نحن نرى قرى ناعسة البياض ، قابعة على التل ، ما أشبهها بطيور جاثمة حطت رحالها بعد طول طواف .

واتضح مجرى النيل ، فصدا بحرا عريضا ، وامتد سطوح الضوء ، وان لم يظهر من قرص الشمس الا اشعة تتراءى من وراء التلال في حذر واحتراس .

وتكاثرت صخور الشلالات القديمة على النهر ، كأنها غصة في حلقه يضيق بها أيما ضيق .

وبعد حين أخذ قرص الشمس يتسامى على التلال ، ويعلن سطوته واقتداره ويريبنا في وضوح تلك القرى البيض بمنازلها وبما تضم من قصور شعبية رحيبة ، أطبق عليها الصمت ، بعد أن ضجرها أهلوها لتعرها بحيرة السد ، وتصبح نهب الماء .

تبعث حوالي أستطلع الوجوه ، واستبين الرفاق السائحون الوافدون من أوربة الشمالية هم أكثر من يضمهم الزورق ، وهم مدججون بمطارات معطمة ، وأجهزة مصورة ، كأنهم طلائع جيش للريادة والكشف ، وما اسرع ان وصل بيننا وبينهم مرح وأنس وارتفعت الكلفة ، وتشابكت محاورات وتكات وأناكيه .

وبينا نحن نتطارح الحديث لاهين ، احسسنا صدمة أصابت الزورق في عنف ، فترنح على اثرها ترنحا أشاع بيننا القلق ، ثم هدأت حركته ، ودار دورة عريضة في النهر ، وبرز خادم السفرة ، فتصيدناه بالأسئلة ، ونصاحك الرجل وهو يردد « لقد طعنتنا سمكة كبيرة ، او لعله تمساح اختفى على الأثر »

تمساح يخبط زورقنا الطائر ... أمر جلل !

وددت لو وقعت عيني على ذلك التمساح الناطح ، اشهر سكان النهر الخالد ، وهو يتخطر حرا طليقا وسط الأمواج في هيبة واقتدار . فلم تعد تشبع عيني تلك التماسيح المعروضة وراء القضبان تتغلب في برك ضحلة خلال حدائق الحيوان . انها هناك رهينة الأسر ، مهيضة الجانب ، لا حول لها ولا طول ، تتنكر شخصيتها فلا تصلح الا للظهور بها نظرات المتفرجين من خلق الله .

وددت هذا ، ولكني وددته بعد ان اختفى أثر التمساح المجسور ، ونجا الزورق من عدوانه ، واصبحنا في أمن واطمئنان ! .

سرنا والتلال الصخرية على الشاطئين تسايرنا ، وجموع الأشجار والنخيل عاطسة في الماء ، لا تظهر منها الا رؤوس وأعناق ... انها تنبىء عن جزر عريقة كانت فيما سلف قرى عامرة ، وعما قريب يعلو السد ، فيغمرها الماء غمرة الأبد ، وكأن هذه

الأشجار والنخيل تتطلع اليها تطلع اليائس المشرف على الهلاك ، وتناشدنا أن نمد اليها يد الخلاص ... كلا لا سبيل الى انقاذك بحال ، فانما نهدر حقك في سبيل غاية أسمى ، وغرض أجدى ، وفي سبيل النفع العام لا مبالاة بأشجار محدودة ، ونخيلات معدودة ، فكوني فداء لمصلحة المجموع ، وارضي بما قسمت لك الاقدار .

وحارت بنا بعض بواخر السياح ، تمشي الهوينى ، كأنها تختال على بساط من حرير ، على حين يقفز وورقنا الطائر ، كأنه في مضمار سباق ، وتبادلنا التحايا ، وقلوبنا في فرحة ، انها فرحة الملتقى بين رفاق جمعت بينهم وحدة الطريق .

ولاحت الأشرعة البيضاء على وجه الماء ، تؤذن بقرب الوصول .

وما لبث المجهار أن دوى يعلن بلوغنا معبد « أبي سمبل » .

وتدانينا من الجبل ، فظهر على سفحه لوح صخري عظيم ، منقوشة فيه أربعة تماثيل ، تأخذ لمنك أول وهلة ، بضخامة الأحجام ... تماثيل في جلسة وكيده ترمي بنظرها الى النهر لتتبادله نجوى صامتة سرمدية ...

وتصلنا عن الرورق ، ولامست أقدامنا أديم الصخر ، وسرنا على مهل خاشعين وأمامنا ذلك اللوح العجيب ، أربعة من «الرمامسة» كأنها أربعة أطواد آدمية ، شقت حجب الزمن الكثيف المتراكم ، وبدت لنا حاملة على مناكبها احداث العصور الخوالي ... انها ترحب بمقدمنا ، وتحمد لنا سعينا - أربعة «رمامسة» هائلة لا يكسوها الا تلك الحودات العالية تحمي الرءوس ، رمزا للسيادة والعلب .

وكنا كلما قاربناها تضاءلنا ازاءها ، واحسسنا تفاهتنا حيال تلك الضخامة البالغة ، لكأننا حقا ابناء « جلفر » في بلاد العمالقة ...

وسمعت بصري الى التماثيل ، وتذكرت قولة الكاتب الفرنسي «اندريه موروا» ان الضخامة عنصر هام في الفن ، وخاصة في هندسة البناء . فالضخم الهائل اذا روعته انقلب اعجازا ، وما كانت ناطحات السحب لتبدو على شيء من الجمال لو لم تكن عمالقة ضخمة .

وها نحن أولاء تجاه معبد « رمسيس الثاني » ، وكل شيء فيه من تماثيل وأروقة منقور في صميم الجبل ... لقد تحول الجبل الأصم الأخرس تحت أزميل الفنان كائنا عظيما تدب فيه الحياة ... يا لذلك الفنان العظيم ، اذ أحال تلك البقعة الموحشة من صخر ورمال موطن تهجد وتعبد ، له قلب ينبض ، وانفاس تتردد .

أنت امام أربعة تماثيل « لرمسيس الثاني » ذات وضعة واحدة ، وعند قدميه أهل بيته ، تحف بهم آلهة من طير وحيوان - وهنا وهناك على اللوح الحجري المجسم تتشابك صور وشارات ورموز ، فتحمل منه مهرجانا فنيا منقطع النظير .

ودخلنا المعبد المنقور في الصخر من باب بين أقدام « رمسيس » الكبير ، عمد شاهقة ، وجدران عالية ، وتماثيل مجسمة ، ونقوش متراحمة ، الى قاعات لأداء

الصلوات ، وسراديب لدفن الموتى ... وخرجنا منه الى معبد آخر على كتف هو معبد «حاتور» ، وعلى وجهته لوح تتعدد فيه تماثيل «رمسيس الثاني» أيضا ... كلها ماعضة على أهبة السير ، أو يخيل اليك أنها تسير !

ورجعنا الى المعبد الأول، ننظر عودا على بدء الى التماثيل الأربعة ، الخالسة جلسة الأبد ، وهي ترمق العالم حولها ، وكأن ما يحدث لا يعنيها منه شيء . لقد حسبت في مستقرها أنها بمنأى عن الأحداث . ومنجاة من الخطوب ، ولكن الدنيا تدور ، وما فتئت من دورانها كائن على ظهر الأرض ، وقد جاءت نوبة هذه التماثيل ، على الرغم من اعتصامها بحصن الجبل وتحصنها به أحقابا سحيقة . وسيأتي غدا من ينقضها قضا ويقتلعها اقتلاعا ، ثم يعلو بها الى رأس الجبل ليقبرها فيه . وستضحى عظمة العلم والصناعة في نقلها على حالها ، كما تجلت عظمة الفن في نحتها وتجسيمها، وان العلم لا يبذل هذا الجهد في انقاذها لمجرد عقيدة ترعى ، أو تاريخ يذكر ، أو أثر يستبقى ، بل يبذله لبعض هذا ولشيء أجل منه وأزكى ، هو الفن ... نعم ، انه الفن !

ومن أجل هذا الفن تنفق الأموال الطائلة في سخاء وطواعية ، على حين يجاهد العالم في سبيل توفير الأقوات لمن تحصدهم المجاعات . أترى الفن خيرا من لقمة العيش وأجدى ؟ أتراه أنفس من أرواح البشر وأسمى ؟ أيكون أعز من الحياة وأعلى ؟

كلا ، ولكن الفن هو معنى العيش الذي به قوام الوجود ، هو نسمة الروح التي هي سر الكون ، هو جوهر الحياة التي يحيق بها قلب الانسان !

لا انفصام بين الفن والرغيف ،فالعيش دون فن عيش جامد يشيع فيه موات .

الفن للوجدان غذاء ، للنفس شفاء ، للروح رحيق .

الفن حدوة المشاعر الكريمة والنزعات السامية ، وهو الذي يشق الآفاق الى اشرف الغايات .

ما قيمة الانسان الحي ، اذا لم يتهيأ له احساس مرهف ، وحياء مسرح ، وذوق رفيع ؟

كم يساوي الانسان اذا قامت مساومته بمعيار ما فيه من لحم وشحم ؟

تافه تمسه كل التفاهة ، وما هو اذن الا رمة من الرمم !

كم يساوي العالم البشري اذا اسقطت منه تلك القيم الروحية الأصيلة ؟

كم تساوي الدنيا كلها اذا خلت من حمق القلوب ورمض الشعور ؟

ليست الحياة لقمة عيش ، بل هي في أول الأمر وآخره مثل وقيم ومعايير ، وما لقمة العيش السائغة المريئة الا وليدة تلك المثل والقيم والمعايير . ولو بقي الرغيف حافا لا أدام له من الفن لاستحال غصة في الحلوق تسد منابع الحياة ، وتهبط بالبشرية الى مستوى البهيمة العجماء ...

من هنا الفن حينما اطيب ثمرات الرخاء والنماء والاسعاد .

من تلك الهبة النفيسة انبثقت الحياة ، وتطور الكون ، وتسامى الانسان .

لا تأسوا على ما يضيع من قناطير الذهب والفضة في سبيل انقاذ نفائس الفن وذخائره، انما تضحوا بها للارتقاء بالانسانية نفسها في اجل معانيها واشرف مدلولاتها، وفي اخر ما تمخضت عنه عبقريتها على توالي العصور .

ان وقفتي حيالك يا «اماسيل» ، اتملى سحر فنك ، وأتهل من جمالك الرهيب، لهي في حسباني اوفر كسب لي في الوجود .

احس وانا خاشع امامك بانتفاضة قدسية ، فكأني في محراب تزكو فيه روحي وتتطهر .

اني لاحنو بين يديك كما احنو في مزار عبادة ، اقتبس من عبقريتك بصيصا يضيء لي السبيل .

وداعا ، أيا سنبل ، .

ولكنه وداع الى لقاء.

سلالقيك وقد تسممت دورة الحبل ، والماء عمر يحيط بك ، ولكنه لا يستطيع ان ينال منك ، وان يحجبك عن عيون روادك ، الطالعين اليك من كل فج ... اولئك الذين يحجون في معبدك وفي تماثيل رماسستك عظمة الفن ، وعبقرية الفنان ، وهم في الحق لا يحتفون برمسيس الكبير ، وان حفت مكانته وعظمت بطولته ، بحروب اقامها ، ولا لفتوحات ظفر بها ، فقد مضى عهد التباهي بالسيطرة والاخضاع، والتفاضل بالسيادة والسلطان ، واظلنا عهد جديد يشد ان تكون الحروب ، في ميدان العلم والحضارة والفتوحات ، في مجال الانشاء والتعمير ، عهد يهدف الى اسعاد البشرية ، وتوحيد سعيها تحت رايات السلام !